

❁ قال ابن القيم: وطريقةُ القرآن في مثلِ هذا أن يَقْرِنَ النفيَ بالإثباتِ، فينفي عبادةَ ما سوى الله ويثبتَ عبادته، وهذا هو حقيقةُ التوحيد، والنفيُّ المحضُ ليس بتوحيد، وكذلك الإثباتُ بدون النفي، فلا يكون التوحيدُ إلا متضمناً للنفي والإثباتِ، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله». انتهى^(١). [٢٩]

[شرح ٢٩] وهو كلام موجز واضح، فالتوحيد والإخلاص لله إنما يكون بالنفي والإثبات، النفي «لا إله» للألوهية لغير الله، ونفي الشريك، وإثبات العبادة لله وحده ﷻ، فالنفي المحض ليس بتوحيد بل تعطيل وإلحاد، إذا قال: لا إله، وسكت، فهذا معناه الإلحاد والتعطيل، وإنكار وجود الله ﷻ، وهذا كفر وضلال.

والإثبات المحض كذلك، الله إله لا يكفي، والإله هو ﷻ لكن هناك آلهة كثيرة تعبد من دون الله، فلا يكفي قولنا: الله إله، أو ربنا إله، لا يكفي، فهو إله بلا شك، لكن هل هناك إله معه، هذا هو محل البحث، فلا يكفي هذا إلا بالنفي، ولا يستقيم التوحيد إلا =

(١) «بدائع الفوائد» (١/١٤١)، ط١. مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٦هـ...

(٢) ص ٣٠.

= بالنفي بأن تقول: «لا إله إلا الله»، فهذا يستقيم التوحيد، ثبت الإلهية لله وحده، وتنفيها عن سواه وإن كانت موجودة.

وبهذا يعلم بطلان قول من قال: معنى «لا إله» يعني: لا إله موجود - قدم خبر موجود - وهذا خطأ، فالآلهة موجودة تعبد من دون الله في كل زمان، ولكنها ليست آلهة حق، وإذا قيد وجوده بحق استقام المعنى، لا إله موجود بحق إلا الله ﷻ.

فالمقصود أن التفسير بالموجود فقط من غير تقييد، لا يستقيم؛ لأن الآلهة موجودة في عهد النبي وقبل النبي ﷺ وبعده، الآلهة موجودة الآن أصنام تعبد، وأوثان تعبد، وأشخاص يعبدون، أموات وأحياء، لكن المقصود نفي أحقيتها، وبيان أنها عُبدت بالباطل كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

هذا هو معنى لا إله إلا الله، فالآلهة موجودة في كل مكان إلا ما شاء ربك، موجودة تعبد من دون الله، من حيوانات، ومن جمادات، ومن أموات، ومن أحياء، وطائفة تعبد القبور ومن فيها، =

= وطائفة تعبد الكواكب، وطائفة تعبد الأصنام، وطوائف تعبد أشياء أخرى، حتى وجد طائفة تعبد الشيطان الآن، جعلوه إلهاً يعبدونه، أعوذ بالله من ذلك.

فالحاصل أن الآلهة موجودة، فالدين والإسلام، والإيمان بأنه لا إله بحق إلا الله، يعني: لا معبود بحق إلا الله ﷻ، وما عبده الناس قديماً وحديثاً كله معبود بالباطل من دون الله، وهذا هو معنى الآية الكريمة في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وكذلك في سورة لقمان: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

فالمقصود أن الآيتين تبينان أن المعبود بالحق هو الله وحده، وما سواه معبود بالباطل، وهكذا بقية الآيات*.

* س: من قال: إن معنى (لا إله إلا الله) الاستفادة من قدرة الله، وأنه قادر على الاختراع أيكون موحداً؟

ج: لا يكون موحداً لأن المشركين قد أقرؤا بهذا، أقرؤا بأن الله =

= متصرف وقادر على الاختراع، ولكن أشركوا به، جعلوا معه اللات والعزى وأشباهاها آلهة تعبد مع الله، ويعتقدون فيها الشفاعة إلى غير ذلك.

وهذا معنى كلام كثير من المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام: لا قادر على الاختراع إلا الله، لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، ما خرجوا بهذا عن توحيد المشركين، كذلك: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] لأن من صفة الإله أنه يحكم بشرعه وما أنزل على رسله، ولهذا يقال: توحيد المتابعة؛ متابعة الرسل، فالحاصل أن الحكم لله وحده ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

فمن جعل حاكماً مع الله فقد أشرك بالله، لكن إن كان الحاكم بالاعتقاد أنه يجوز أو يستحسن هذا كفر أكبر والعياذ بالله، أما إذا فعل بهواه بعض الأحيان لرشوة، هذه معصية كبرى عظيمة، ولا يكون كافراً عند أهل العلم، بل يكون ضعيف الإيمان عاصياً فاعلاً كبيرة؛ لأنه يعتقد أنه مجرم، وأنه ظالم، ولكنه حكم لفلان، أو وثق شهوده بالباطل بالرشوة، فهذا يكون عاصياً وضعيف الإيمان، وجديراً بالعزل والعقوبة.

ولكن لا يكون مثل من استحل ذلك، أو استحسن ذلك، فذاك كافر مرتد، وهذا عاص فاعل كبيرة، نسأل الله العافية.

س: إذا كان الإنسان بوظيفة مثلاً وألزم بحلق لحيته، وهو يعرف أن ذلك محرم فحلقها، فهل يصير بهذا قد أشرك في المتابعة؟ =

= ج: هذه معصية من باب «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١) لكن إذا اعتقد أنه يجوز أن يطاع المخلوق في معاصي الله، وأنه لا بأس بطاعة الملك أو غير الملك أو الشيخ فيما يخالف شرع الله وأنه يشرع، فهذه ردة، أما إذا أطاعه لهواه لأجل مال أو لأجل كذا أو لأجل منزلة، وهو يعلم أن هذا محرم، فهذه معصية.

هذا هو الفرق بينهما، ففعل المعاصي على حالين: إذا فعلها ويعلم أنها معاصي فهو عاص، وإذا فعلها وهو يعتقد حلها، وهي مما يعرف من الدين بالضرورة أن الله حرم ذلك، فأحل الزنى أو أحل الخمر فهذه ردة عن الإسلام، أما إذا كانت مسألة اختلاف وليس فيها دليل واضح، فليست من هذا الباب، بل هي محل نظر.

س: يدخل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَتَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؟

ج: يدخل فيه إذا استحله، إذا استحل ذلك وظهر به، هذا إذا كانت معصية فقط، إذا يعتقد أنها معصية كما يفعل أهل الكبائر وأهل المعاصي.

(١) أخرجه أحمد (١/١٣١).

❁ ويدخل في الكفر بالطاغوت بُغْضُهُ وكراهتُهُ، وعدمُ الرضا بعبادته بوجهٍ من الوجوه.

ودلت الآية على:

١- أن الحكمة في إرسال الرُّسُلِ هو عبادةُ الله وحده، وتركُ عبادةٍ ما سواه.

٢- وأن أصلَ دينِ الأنبياءِ واحدٌ، وهو الإخلاصُ في العبادةِ لله وإن اختلفت شرائعُهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٣- وأنه لا بدَّ في الإيمانِ من العملِ رداً على المرجئة^(١). [٣٠]

[شرح ٣٠] المرجئة الإيـان عندهم قول وتصديق؛ تصديق بالقلب وقول باللسان، والعمل ليس عندهم من الإيـان وإن أوجبوا العمل، ولكن لا يسمونه إيماناً، وهذا من أغلاطهم، والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيـان يشمل الثلاث: العقيدة، والقول، =

= والعمل، وأنه يزيد وينقص، كذلك رد على من يقول: إن الإيمان مجرد قول كبعض المرجئة وكالكرامية وأشباههم، أو مجرد معرفة، كما يقوله طوائف أيضاً*.

* س: هل ثبت أن الحنفية يقولون بالإرجاء؟

ج: المشهور أنهم مرجئة الفقهاء لا يسمون العمل إيماناً، وإن كانوا يرون وجوب العمل، لكن ما يسمى عندهم إيماناً، يقولون: إن قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: ٣٠] يدل على ذلك؛ لأن في العطف المغايرة، إذا فالعمل غير الإيمان. وهذا غلط عند أهل السنة؛ لأنه يعطف على غيره، وإن كان جزءاً منه للمغايرة، ويعطف على غيره لكونه ليس منه، بل شيء آخر كجاء زيد وعمرو، فيعطف الخاص على العام ليعلم أنه داخل فيه، وأنه ينص عليه من باب الإيضاح لأهميته، مثل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] الصلاة الوسطى من الصلوات ولكن لأهميتها ذكرها، مثل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] «كونوا مع الصادقين» من التقوى أيضاً. كذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧] وإقام الزكاة وإيتاء الزكاة من العمل ومن الإيمان ولكن للتنبيه، كذلك قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] =

= معطوف على الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو داخل في العمل التواصي بالحق عمل، والتواصي بالصبر عمل، ولكن لعظم أهميتها نبه عليها وفي آية أخرى لم يذكر أنها داخلان في الإيمان وفي العمل.

س: هناك من يعتقد أن أبا حنيفة لم يخالف أهل السنة في مسألة الإيمان.

ج: بعض أهل العلم يقولون: الخلاف لفظي، وأن ما سماه إيماناً هو واجب عليه، من حيث اللفظ، وإلا فهو يوجب ما أوجب الله، ويحرم ما حرم الله، فيكون الخلاف لفظياً، والتحقيق ليس بلفظي وله شأن.

فإن أهل السنة والجماعة يسمون هذا العمل إيماناً، والصلاة تسمى إيماناً، والتواصي بالصبر يسمى إيماناً، والتواصي بالحق يسمى إيماناً، يعني: الإيمان العملي، بحيث يكون ناقص الإيمان إذا ضيع ذلك، وأنه يلزم على ذلك أن من ترك العمل صادق الإيمان كامل الإيمان، ولا يستقيم هذا.

س: لكن أبو حنيفة لا يقول بهذا.

ج: نعم، لا يقول بهذا، لكنه لا يسمي العمل إيماناً.

س: إذاً الخلاف لفظي.

ج: لا، لا يستقيم أن يكون الخلاف لفظياً، لأن الله وعد المؤمن الجنة، فإذا كان عمله من الإيمان، فمعنى ذلك أن المؤمن الذي صدق بقوله وقلبه ولم يأت بالعمل مؤمن يستحق الجنة، وأهل السنة والجماعة يقولون: لا، ما يستحق الجنة إلا بالأمور الثلاثة يكون مؤمناً بالقلب، مؤمناً بالقول، مؤمناً =

= بالعمل، يعني: مؤدياً للواجبات.

س: وفي الحديث، أي: من حيث التوثيق؟

ج: أكثر أهل العلم لا يوثقونه من جهة الحفظ، وإن عني بالقياس والمسائل، وبعض أهل العلم يمشيه في الرواية، لكن المشهور كما قلت: إنه ليس بذاك في روايته، فهو متكلم فيه من جهة الحفظ لا من جهة العدالة.

س: ابن حبان ذكره في كتاب «المجروحين»؟

ج: أما ابن حبان فقال في «التقريب»: فقيه مشهور، وأعرض عن البحث في التعديل والتضعيف.

❖ قال: وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ الآية [الإسراء: ٢٣] هكذا ثبت في بعض الأصول، لم يذكر الآية بكما لها.

قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وصَّى، وكذلك قرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم.

وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: يعني: أمر.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ «أن» هي المصدرية، وهي في محل جر بالباء، والمعنى: أن تعبدوه، ولا تعبدوا غيره ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً؛ بل هو:

١- إما فقيرٌ محتاجٌ إلى رحمة ربه، يرجوها كما ترجونها.

٢- وإما حمادٌ لا يستجيب لمن دعاه^(١). [٣١]

[شرح ٣١] وإما ميت ليس له تصرف ولا حراك في شيء؛ فمدعوهوم بين فقير لا يستطيع شيئاً - وكل إنسان عاجز يدعو =

= رحمة ربه ويرجوه ويخافه - وإما ميت لا إحساس له ولا شعور له في داعيه ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وإما جماد كالصنم والشجر والحجر والكوكب وأشباه ذلك، فهذه هي معبوداتهم؛ إما جمادات وإما أموات وإما أحياء لا يملكون شيئاً، وكل إنسان وكل حي هو عاجز لا يملك إلا ما ملّكه الله إياه، فهو في قبضة الله تعالى أو بتدبيره وتصرفه، ليس له ملك في نفسه، بل هو مدبّر مصرّف تحت يد الله ﷻ فكيف يدعى من دون الله.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني: أمر وأوصى كما قال المفسرون، وإنما قالوا هذا لئلا يظن ظان أن ﴿وَقَضَىٰ﴾ بمعنى قدر وأنه قضى في قدره السابق أن لا تعبدوا إلا إياه، فإن هذا التفسير باطل، ولو كان قضى أن لا يعبد إلا إياه سبحانه ما خالف الناس ذلك؛ فإن القضاء والقدر ماض في العباد، فلو قدر - سبحانه - وقضى أن جميع العباد يعبدونه ما بقي مشرك في الأرض ولا كافر، وصار الناس كلهم على التوحيد.

= والواقع يخالف ذلك؛ فعلم أن المراد بالقضاء هو الأمر بالوصية
كما في الآيات الأخرى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾
[النساء: ٣٦] إلى غير ذلك، ففضى هنا بمعنى الأمر والوصية،
والتوجيه إلى هذا الخير العظيم، وليس بمعنى القضاء الذي بمعنى
التقدير السابق والكتاب السابق أن لا تعبدوا إلا إياه، وإلا لكان
هذا باطل من أبطل الباطل.

❁ وقوله: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وقضى أن تُحَسِّنُوا بالوالدين إحساناً، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له، وعطفُ حقِّها على حقِّ الله تعالى دليلٌ على تأكُّدِ حقِّها، وأنه أوجبُ الحقوقِ بعد حقِّ الله، وهذا كثيرٌ في القرآن، يقرن بين حقِّه ﷻ وبين حقِّ الوالدين؛ كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] ولم يخصَّ تعالى نوعاً من أنواع الإحسان؛ ليعمَّ أنواع الإحسان.

وقد تواترت النصوصُ عن النبي ﷺ بالأمرِ ببرِّ الوالدين، والحثُّ على ذلك، وتحريمِ عقوقِهما كما في القرآن.

ففي «صحيح البخاري» عن ابن مسعود، قال: سألتُ النبي ﷺ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وقتِها» قلت: ثم أيُّ؟ قال: «برُّ الوالدين» قلت: ثم أيُّ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله» حدَّثني بهنَّ، ولو استرَدَّته =

= لَزَادَنِي^(١).^(٢) [٣٢]

[شرح ٣٢] قد خرج مسلم أيضاً هذا الحديث فهو في «الصحيحين»، وهو موافق لما في الآية الكريمة من وجوب حق الله، ثم حق الوالدين، فالصلاة من حق الله تابعة للتوحيد، فحق الله مقدم، ثم حق الوالدين بعد ذلك؛ ولكن لعظم حقهما، وكونها السبب في وجوده بإيجاد الله له ﷻ، وعظيم ما يقومان به من خدمة وإحسان، جعل الله حقهما كبيراً وعظيماً ومقروناً بحقه ﷻ، وجعل الشرك مقروناً بالعقوق؛ لعظم شأن العقوق وخطره، وأيضاً لفساده، وكونه مقابلة الإحسان بالإساءة جعل الله العقوق من الشرك، كما في حديث أبي بكرٍ الثقفي: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين»^(٣).

فالمقصود أن البر بالوالدين من أكد الفروض، وعقوقهما من أكبر الكبائر، ومن المؤلم المحزن في هذا العصر قلة العناية بهذا الواجب، وكثرة من يؤذي الوالدين، ويتعدى عليهما، ويسيء إليهما =

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٧٠)، ومسلم: الإيمان (٨٥).

(٢) ص ٣١.

(٣) أخرجه البخاري: الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم: الإيمان (٨٧).

= في المقال والفعال، وهذا كله من قلة العلم، ومن قلة البصيرة،
ومن ضعف الإيمان أو عدم الإيمان.

وقد يكون من سببه أيضاً جهل الوالدين، وسوء تصرفهما،
وعدم صبر الولد على ذلك، فالمقصود أنه قد يترتب من الأمرين
من جهل هذا وجهل هذا، أو من سوء تصرف هذا وسوء تصرف
هذا، قد يترتب منها العقوق، فالواجب العناية بهذا الأمر، وتوجيه
الناس إليه، وإرشادهم إليه، وتحذيرهم من العقوق الذي يضرهم
ويضر مجتمعهم، والله المستعان.

❁ وعن أبي بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان مُتَكِنًا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يُكرِّرها، حتى قلنا: ليتها سكت. رواه البخاري ومسلم^(١).^(٢) [٣٣]

[شرح ٣٣] لماذا جاء في الحديث (حتى قلنا: ليتها سكت)؟ أتراهم لا يحبون أن يكرر، حتى قالوا: ليتها سكت؟ بل من شدة المعصية، (ليتها سكت) إشفاقاً عليه من التعب، وإبقاء عليه لما رأوا شدة غضبه وتكراره، فقالوا: ليتها سكت، لئلا يتضرر ﷺ من كثرة تكراره لهذا الكلام، وتحمسه له، وحرصه على تبليغه للناس لا كراهة لكلامه، ولا كراهة لتكراره، ولكن من باب الإبقاء والعطف ومحبة ألا يتألم بشيء، عليه الصلاة والسلام.

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٧٦)، ومسلم: الإيمان (٨٧).

(٢) ص ٣١.

❁ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمَّكَ» قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمَّكَ» قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمَّكَ» قال: ثم مَنْ؟ قال: «أَبُوكَ». أخرجاه^(١).

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ». رواه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم^(٢).

وعن أبي أسيد الساعدي، قال: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِّنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٌ أَبْرُهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟^(٣) [٣٤]

[شرح ٣٤] أبر من باب فرح، بر يبر إذ بر يبر فيدغم، من باب فرح =

- (١) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٧١)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٤٨).
 (٢) الترمذي: البر والصلة (١٨٩٩)، وابن حبان في «صحيحه»: البر والإحسان (٤٢٩)، والحاكم: البر والصلة (١/١٥١-١٥٢)، وعندهم: الوالد بدل الوالدين في الموضعين.
 (٣) ص ٣٢.

.....

= يفرح وعلم يعلم، القاعدة أن الماضي إذا أتى فعل فالمضارع يفعل بالفتحه، إلا في ألفاظ معدودة.

obeykandil.com

✽ فقال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عَهْدِهما مِنْ بَعْدِهما، وَصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرامُ صديقِهما».

رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»^(١).
والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، قد أفردها العلماءُ بالتصنيف، وذكر البخاريُّ منها شطراً صالحاً في كتاب «الأدب المفرد»^(٢). [٣٥]

[شرح ٣٥] وهذا الحديث الجليل عن أبي أسيد الساعدي، فيه بيان حق الوالدين بعد وفاتهما.

وقوله: (الصلاة عليهما) يدخل فيها صلاة الجنائز، ويدخل فيها الدعاء، فإنه يسمى صلاة، ومنه الاستغفار، وكذلك من حقهما بعد وفاتهما الإكثار من الدعاء لهما بالمغفرة، والرحمة، ورفع الدرجات، ونحو ذلك.

(١) أبو داود: الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه: الأدب (٣٦٦٤)، وابن حبان (٤١٨).

(٢) ص ٣٢.

= ولهذا في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١)، فمن أعظم نفع الولد الصالح أن يدعو لوالديه، ويستغفر لهما، وإذا تصدق عليهما فكذلك، لكن ليس كل أحد يستطيع الصدقة، أما الدعاء فميسور لكل أحد، للفقير والغني.

ومن حقهما كذلك (إنفاذ عهدهما من بعدهما) هذا أمر ثان، وإنفاذ وصاياهما، إذا أوصيا بشيء فمن حقهما وبرهما إنفاذ هذه الوصايا، لكن بشرط أن تكون غير مخالفة للشرع، بل على طريقة الشرع؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان والدًا.

فإذا أوصى بوصايا تخالف الشرع لم تنفذ، وإذا أوصى بوصايا، والأم كذلك أوصت بوصايا، وهي موافقة للشرع، نفذت، هذا من حقهما.

كذلك من حقهما صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وصلة أرحامهما، من عم، وأب لأبيك، وجد، وعمات، وما أشبه ذلك، =

(١) أخرجه مسلم: الوصية (١٦٣١).

= أي: أقارب والديك.

والرابع إكرام صديقيهما، إن كان لهما أصدقاء في حياتهم، فمن برهما إكرام أصدقائهما، والإحسان إليهم، بمواساة الفقير، بزيارته، وبالدعاء له، وبالهدية له، وكف الأذى عنه، وما أشبه ذلك.

هذا من إكرام صديق الوالد، وثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في طريقه في بعض أسفاره إلى الحجاز، وكان معه حمار يستريح عليه إذا تعب من ركوب البعير، فقابلته أعرابي، وسلم عليه، قال: أنت ابن فلان، قال: نعم، فأمر له بالحمار، وبعمامة كانت عليه، فأعطاهما إياه، وقال: إن والد هذا كان صديقاً لعمر، فقال بعض الحاضرين: لو أعطيته دون ذلك؛ لأن الأعراب يكفيهم الشيء اليسير، فقال: لا، إن والده كان صديقاً لأبي، فأردت أن أكرمه بهذا الشيء^(١).
فالمقصود أن إكرام أصدقاء الوالد من بر الوالد*.

* س: كيف يجمع بين صلة الرحم مع العصاة وبين الحب في الله والبغض في الله؟

=

(١) أخرجه مسلم: البر والصلة (٢٥٥٢) (١١) و(١٣).

= ج: لا منافاة بين الحب في الله والبغض في الله، وصلة الرحم، أسماء بنت أبي بكر كانت أمها كافرة، وهي تريد مساعدتها، فاستشارت النبي ﷺ، قالت: يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت عليّ، وهي راغبةٌ، وهي لا تزال على الشرك، أفأصلُّها؟ قال النبي ﷺ: «صَلِّهَا»^(١)، فوصل الرحم قد يكون من أسباب إسلام الوالد إذا كان كافراً، ومن باب تأليفه على الخير.

كذلك ورد في القرآن الكريم، يقول جل وعلا: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وكان عمر يهدي إلى أخ له مشرك في مكة^(٢).

والحاصل أن صلة الأقارب والإحسان إليهم، وهم ليسوا حرباً لنا، وفي حال أمن ومعاودة وصلاح أو ذمة، لا تنافي بغضهم في الله، وهذا بإجماع المسلمين.

وليس هناك نزاع بحمد الله أن يصل المؤمن أرحامه ويواسيهم ويحسن إليهم، ولو كانوا كفاراً، وفي هذا من الفوائد: صلة الرحم، والدعوة إلى الهدى، والصلاة، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فإذا =

(١) أخرجه البخاري: الجزية والموادعة (٣١٨٣)، ومسلم: الزكاة (١٠٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: الهبة وفضلها (٢٦١٩)، ومسلم: اللباس والزينة (٢٠٦٨).

= أحسنت إلى الناس، كان هذا من أسباب رجوعهم عن الباطل الذي تدعوهم إلى تركه، سواء أكان كفراً أم معصية، وإذا أسأت إليهم وقاطعتهم فهو من أسباب بقائهم على ما هم عليه من الباطل إلا من شاء الله. فالقصد أن في الإحسان خيراً كثيراً، ولهذا جاءت الشريعة بالإحسان مع العدو، ومع الصديق، ولا يخفى قول النبي ﷺ للرجل الذي قال: يا رسول الله، إن لي قرابةً أصلهم ويقطعونني، وأحسبني إليهم ويسبئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، قال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تفسفهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم، ما دمت على ذلك»^(١) أي: معين، وهكذا يقول ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل إذا قُطعت رحمهُ وصلها»^(٢)، فالقطيعة معصية منهم، ومع هذا يقابلها بالإحسان.

س: إذا كان أهل رَحِمه على معصية ويخوضون في الباطل؟

ج: لا يلزم من وصلهم الاستماع للباطل، فيصلهم ولا يجلس معهم على الباطل، فيصلهم من بعيد، ويرسل لهم الدراهم والكسوة، ولو كان - يعني منهم - شيء من الباطل فلا يلزم أن يجلس معهم على الباطل. =

(١) أخرجه مسلم: البر والصلة (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: الأدب (٥٩٩١).

= فعلى المسلم أن لا يقطع رحمه ويقطع الصلة وإن كانوا عصاة، بل ينصحهم، ويدعوهم إلى الله جل وعلا، ويرغبهم بالخير، فيصلهم بالمال، ولا يقطعه، أو بغير المال مما ينفعهم، أو الشفاعة لهم، أو رد الظلّامة عنهم، وما أشبه ذلك.

س: قد يكون لي مثلاً إخوان فقراء، ولكنهم رجال يشربون الدخان ويشربون التّبّاك؟

ج: صلهم، وادعهم إلى الله، وواسهم بما عندك من المال، ومن الزكاة، وادعهم إلى الله، فقل: هذا منكر، وهذا لا يجوز، يا إخواني هذا يضركم، وأحسن إليهم حتى تجمع بين المصلحتين.

س: قد يصفون هذا الذي أعطيتهم إياه على شرب الدخان؟

ج: لا عليك منهم، إذا أعطيتهم إياه فقد فعلت الخير، وأمرهم بينهم وبين الله، لكن لا تعينهم أنت وتأت لهم بالدخان تشتريه لهم. وأمر الكافر أعظم من شارب الدخان.

❁ قال: وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

[النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَأْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: يقول الله تعالى لنبية ورسوله محمد ﷺ:

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، =

= وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ
بَارِئِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَتَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ: ﴿تَعَالَوْا﴾ أي:
هَلُمُّوا وَأَقْبِلُوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي:
أَقْصُصْ عَلَيْكُمْ، وَأُخْبِرْكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا لَا
تُخْرِصًا، وَلَا ظَنًّا، بَلْ وَحِيًّا مِنَ اللَّهِ، وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ ﴿أَلَا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قال: وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ
السِّيَاقُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَصَاكُمْ ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وَلِهَذَا قَالَ
فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٥١] (١).

قلت: ابتداءً تعالى هذه الآيات المحكمات بتحريم الشرك
والنهي عنه (٢). [٣٦]

[شرح ٣٦] هذا قول لبعض العلماء.

والقول الثاني أن «لا» هنا زائدة؛ كما جاءت في مواضع
كثيرة، والمعنى: أتلو ما حرم ربكم عليكم أن تشركوا به شيئاً، =

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٣٥٩-٣٦٠).

(٢) ص ٣٢-٣٣.

= ف «لا» هنا صلة.

وفي الآية الأخرى ﴿لَيْسَ يَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب، فقد تأتي في الكلام زيادة وصلة لظهور المعنى، فإذا روعي هذا، وأنها صلة في الكلام كما في مواضع أخرى، فالمعنى: حرم عليكم أن تشركوا به شيئاً.

أما إذا بقيت «لا» على حالها، فهذا يحتاج إلى تقدير: وصاكم بألا تشركوا شيئاً، فالتقدير: وصاكم، ولكن مهما أمكن الاستغناء عن الحذف فهو أولى، ثم صار الكلام على الحذف واستقام أمر الكلام بدون حذف، فهو أولى عند أهل العلم وعند أهل العربية.

وهذا مستقيم من دون حذف: «قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم أن تشركوا به شيئاً» أي: أنها صلة قد تزداد في مواضع؛ لظهور المعنى في لغة العرب، ومن هذا قوله تعالى في آخر سورة الحديد ﴿لَيْسَ يَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب.

❁ فحرم علينا أن نشرك به شيئاً، فشَمِلَ^(١) ذلك كلُّ مُشْرِكٍ به، وكلُّ مُشْرِكٍ فيه من أنواع العبادة، فإن «شيئاً» من النكرات، فيعمُّ جميعَ الأشياء، وما أباح تعالى لعباده أن يشركوا به شيئاً، فإن ذلك أظلمُ الظُّلمِ، وأقبحُ القبيحِ.

ولفظُ «الشرك» يدلُّ على أن المشركين كانوا يعبدون الله، ولكن يشركون به غيره من الأوثانِ والصالحينِ والأصنامِ، فكانت الدعوةُ واقعةً على تركِ عبادةِ ما سوى الله وإفرادِ الله بالعبادة^(٢). [٣٧]

[شرح ٣٧] ولا شك أن لهم أنواعاً من العبادة، فيحجون، ويتصدقون، ويقدرّون قدر الله في حال الشدائد، ويخلصون له العبادة، فلهم أنواع من العبادة، لكنهم لا يحضونها لله، بل يفعلونها لله، ويفعلون مع ذلك الشرك بغيره، والعبادة لغيره، فلهذا سموا مشركين؛ لكونهم شركوا في العبادة غير الله ﷻ، وإلا فهم بلا شك يقع لهم عبادات: من حجهم، وصدقاتهم، وغير هذا من الطاعات =

(١) قال سماحة الشيخ: شَمِلَ - بالكسر - أفصح، وقد يجوز شَمَلَ بالفتح.

(٢) ص ٣٣.

= التي يفعلونها لله ﷻ، وهكذا يفعلون وقت الشدائد من إخلاص
العبادة لله وحده كل هذا واقع.

وكل إنسان يجد من ضميره ومن إحساسه شيئاً من الأهواء في
عبادة من هو فوقه، ومن هو أعظم منه ومن هو أعلى منه، ومن هو
صببٌ فيه، وإن اختلفت عقائدهم في هذا الإله، في هذا القاهر:
هل هو يسمى الله؟ أو غير ذلك؟ لكن كل إنسان مفطور في أصل
خلقته على أن له رباً وخالقاً ومدبراً، لكنهم في معرفته وتفصيل
عبادته أنواع لا تحصى، والله المستعان.

والرسل هي التي دلت على ذلك، أن لها معبوداً، وخالقاً،
ومريباً، ومدبراً، فجاءت الرسل تبين هذا الإله، وهذا المعبود،
وهذا الخالق، وتوضحه بأسمائه وصفاته، وتوضح جهته التي يسأل
منها، ويدعى، وأنه من جهة العلو ﷻ، فالرسل جاءت بإيضاح
هذا الأمر، وبيانه أكمل إيضاح، وأعظم بيان.

❁ وكانت «لا إله إلا الله» مُتضمَّنة لهذا المعنى، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرارِ بها نُطقاً وعملاً واعتقاداً، ولهذا إذا سُئِلوا عما يقولُ لهم؟

قالوا: يقول: اعبُدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، واتركُوا ما يقولُ آباؤُكم، كما قاله أبو سفيان^(١).^(٢) [٣٨]

[شرح ٣٨] لما سأله هرقل عما يقوله محمد، قال مثل هذا الكلام، يقول: اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واطركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصلة، والصدق، والعفاف.

(١) انظر ما أخرجه البخاري: بدء الوحي (٧).

(٢) ص ٣٣.